

التطور التاريخى للسياسة الفرنسية فى أعالى النيجر

دكتور/ نصر الدين رشوان حسن

واجهت فرنسا فى خلال السبعينات من القرن التاسع عشر بعض الضغط لأن تدفع بوزارة البحرية ، المسئولة عن شئون المستعمرات ، الى تبنى سياسة توسعية فى غرب أفريقيا ، فى حين أن الاتجاه الغالب فى فرنسا كان نحو اعطاء أسبقية أولى فى سياستها الخارجية الى استعادة قوتها ونفوذها فى أوروبا بعد هزيمة ٧٠ - ١٨٧١ ، كما أن كثيرين من الفرنسيين أظهروا اتجاها معاديا تماما لأى سياسة توسعية • وكانت وزارة الخارجية تتبنى الاتجاه الأخير وتصر على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع بريطانيا كنقطة بداية نحو استعادة مكانة فرنسا على المستوى الدولى^(١) •

وقد شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاها نحو اقامة المشروعات الكبيرة عبر القارات لخدمة التجارة والتوسع الاستعمارى ، وبالنسبة لفرنسا فقد كانت تسعى الى اقامة خط سكة حديد بين سان لوى والنيجر يمكنها من التوغل بفاعلية فى أسواق غرب أفريقيا ، لكن اقامة مثل هذا الخط تتطلب تأمينه باخضاع المناطق التى يمر بها واقامة الحصون فيها • وكان هناك اعتقاد فى فرنسا بضرورة أن تسبق بريطانيا

(1) HARGREAVES : Prelude to the Partition of West Africa
pp. 198, 9.

الى هذه المنطقة فى حين أن البريطانيين فى سيراليون كان اهتمامهم بأعلى النيجر متواضعا ، وهذا يعنى من جهة أخرى أن فرنسا ستعفى نفسها من حرج مواجهة مشكلات دولية حادة • كذلك فلن تكون هناك معارضة داخلية كبيرة حيث أن التقدم فى هذه المناطق لا يتطلب ارسال قوات كبيرة من فرنسا نفسها على عكس الحال بالنسبة لغزو مصر أو تونس • ومما أغرى الداعين للاستعمار للاستمرار فى هذا الاتجاه أن كليمنصو المشهور بمعارضته للاستعمار لم يتعرض لدعاة الاستعمار الذين كانوا دائمي الاشادة بما أسموه الأعمال البطولية لعدد محدود من الفرنسيين الذين يعملون وسط شعوب « بربرية ومتعصبة » • وكان من حسن حظ هؤلاء أن تولى وزارة البحرية الفرنسية فى عام ١٨٧٩ الاميرال جويجيبيرى (Jauréguiberry) حاكم السنغال السابق^(٢) •

وقد مهد الجو لتقبل الاتجاه نحو الاستعمار بعض الجغرافيين والناشرين الفرنسيين الذين كانوا يواصلون الحديث عن مزايا الحصول على المستعمرات وكان من أشهر هؤلاء لوروى بوليو Leroy - Beaulieu ولكن مع ذلك ظل الاتجاه العام لدى الفرنسيين غير عابىء بهذه الدعوة واستمر الحال على ذلك حتى عصر بداية التكالب والمنافسة بين الدول الأوروبية للحصول على المستعمرات^(٣) •

وقد تميزت السياسة الخارجية الفرنسية خلال الثمانينات بالتضارب بين وزارة الخارجية ووزارة البحرية التى كانت تضم ادارة خاصة بشئون المستعمرات ، وازداد هذا الصراع حدة بانشاء سكرتارية دائمة ومسئولة عن ادارة وتوسيع المصالح الاستعمارية الفرنسية ، وتزايد نفوذ هذه السكرتارية حتى أصبحت فيما بعد نواة لقيام وزارة للمستعمرات • وعلى أى حال فان وزارة البحرية بالتضافر مع السكرتارية

(2) HALLET : Africa since 1873, pp. 267 - 8,

(3) HARGREAVES : op. cit., p. 200.

المذكورة عملت على تدعيم مطالب فرنسا ازاء النيجر أكثر مما فعلته وزارة الخارجية الفرنسية التي كانت على دراية أكثر والمأم أعمق بحقيقة العلاقات المعقدة مع بريطانيا في الكثير من المسائل المتعلقة بمشكلات الساحل^(٤) .

وكان من العوامل المؤثرة في سياسة فرنسا قلة الاعتمادات المالية المخصصة من قبل الجمعية الوطنية الفرنسية في الثمانينات للتوسع الاستعماري ، وقد أدى هذا الى اعتماد المسؤولين الفرنسيين في تقرير سياستهم على خبرة عدد من المسؤولين في ادارة المستعمرات أو على المعلومات التي يحصل عليها مكتب

(Bureau du Haut - Fléuve et du Niger)

الذي أنشئ في عام ١٨٨١ . وكان لفرنسا قنصل نشيط في براس (Brass) على نهر النيجر يدعى انطوان ماتى Antoine Matéi عمل على الحصول على معاهدات من زعماء هذه المنطقة ولما علم بذلك المسيو (Duclerc) وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٨٣ وكان حديث عهد بالوزارة ، أحال الأمر برمته الى جورجيجيرى وزير البحرية الذي أقر ماتى على خطته وزوده بعدد من التعليمات والمبادئ لمراعاتها في المعاهدات التجارية التي يوقعها مع الزعماء الافريقيين في نهري النيجر وبنوى (Benue)^(٥) .

كانت سياسة فيديرب (Faidherbe) حاكم السنغال السابق في السنينات تهدف الى أبعاد أسواق السودان الغربى عن أيدي بريطانيا واتبع في ذلك سياسة تهدف الى أبعاد التكتلور عن أعالي السنغال واحتلال وادى السنغال — النيجر والاستيلاء على باماكو . كذلك فان بريير دى ليل (Brière de L'isle) حاكم السنغال اللاحق كان يهدف

(4) NEWBURY : The map of Africa by treaty, vol. 11, p. 16.

(5) NEWBURY : Ibid, pp. 18 - 20.

أيضا الى اقامة امبراطورية رسمية فى السودان الغربى باقامة خط من الحصون يصل الى النيجر اعتمادا على العمل العسكرى وحاول اخراج فرنسا عن السياسة التى التزمت بها حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى سياسة التدعيم والاقتصاد والسلام (Consolidation, economy and peace) وذلك بسبب ما نتج عن الحروب السبعينية ورغبة فرنسا فى عدم الدخول فى أية ارتباطات مالية خارج حدود فرنسا يمكن أن تؤثر على استعداداتها العسكرية وأمنها فى أوروبا ذاتها^(٦) .

وفى عهد فرسينيه (Freycinet) الذى تولى رئاسة الوزارة الفرنسية فى ديسمبر ١٨٧٩ ظهر التحول واضحا نحو الرغبة فى التوسع واعتبر أن من مهام وزارته أن تحول أنظارها الى خارج الحدود وأن تبحث أية فتوحات سلمية يمكن أن تقوم بها^(٧) .

وبالفعل أقام جوريجيرى قيادة عسكرية خاصة فى سنة ١٨٨٠ تولاها بورنى ديسبورد (Borgnis Desbordes) وهو ضابط مدفعية مشهور بعنفه ، لم يلتزم دييورد بالسياسة السلمية السابقة بل أعلن أن الغزو السلمى للنيجر ليس الا خرافة ، ولا بد من غزوه عسكريا ، وفى فبراير ١٨٨٣ وصل الى باماكو وأقام فيها حامية عسكرية . وكان الوضع حول باماكو يتمثل فى وجود دولة أحمدو التكلورية فى الشمال ، ودولة سامورى فى الجنوب والشرق ، وفى الغرب فى المنطقة الواقعة بين السنغال وجامبيا كان هناك زعيم دينى جديد هو محمدولامين الذى بدأ عهدا من الفتوحات وبدأ يهاجم المواقع الفرنسية فى باكل (Bakel) وكان الأمر يتطلب من فرنسا اتباع سياسة تستطيع مواجهة هذا الموقف

(6) NEWBURY : The development of French Policy in the Lower and Upper Niger, p. 259.

(7) NEWBURY : op. cit., p. 262.

لكن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضت تخصيص مزيد من الأموال للحملات العسكرية وعاد ديبورد الى فرنسا وتبعه خلفاء أقل منه اندفاعا (٨) .

كان من الواضح أن جوريجيرى لم يلتزم بالسياسة السلمية لرئيس الوزراء وصديقه فرسينيه وكان يهدف فى الحقيقة الى السيطرة السياسية لا التوسع التجارى أو الاقتصادى ومع ذلك فقد التزم أمامه من الناحية الرسمية بأنه يرغب فى الاشتراك فى الحركة العامة التى تحمل الدول الأوروبية الى قلب أفريقيا لتفتح فيها أسواقا جديدة لتجارتها (٩) .

جاء جايينى (Callieeni) خلفا لديبورد ، وكان برييردى ليل قد سبق أن أرسله فى ١٨٨٠ فى مهمة الى احمدو لتوقيع معاهدة صداقة وتجارة معه وكان الهدف من هذه المهمة هو اعطاء التكنولوجيين شعورا زائفا بالأمن مما سهل احتلال وادى السنغال — النيجر .

ومن ثم فان جايينى عندما تولى قيادة منطقة السنغال — النيجر لم يكن جديدا على المنطقة . كان جايينى يتميز بثقافته الواسعة ويختلف كنية عن زملائه من الضباط الفرنسيين فى نظرتهم للمشكلات المتعلقة بالادارة الاستعمارية ، وكان لا يخالجه أدنى شك فى مسئولية بلاده التى ألزمت بها نفسها فيما أسمته بالمهمة الحضارية (Mission Civilisatrice) وكان لا يؤمن بالاندفاع فى الغزو بل يرى ضرورة أن تؤكد فرنسا وجودها فى أى منطقة اذا ما غزتها . ولهذا اعتبر الحصول على المعلومات مسألة حتمية . وكان يقول ان الضابط الذى يستطيع أن يضع خريطة بشرية (Ethnographic map) للمنطقة التى يتولاها انما يسير بخطى ثابتة نحو اقامة السلام الكامل فيها .

(8) HAUET : cit., p. 269.

(9) NEWBURY : French Policy, p. 262.

« Prendre part au mouvement génement général qui de L'Afrique pour y ouvrir de nouveaux debouchés à leur commerce ».

وقد أوصى جاييني خليفته أرشينار (Archinard) بقوله علينا أن ننظر إلى هؤلاء الزعماء ويقصد أحمدو زعيم التكلور وساموري — على أنهم قوم يجب أن يختلفوا من مسرح الأحداث في أقرب وقت . وهذا الهدف يتحقق بالخدعة وبالتسلل وليس بالصراع المباشر . وقد نجحت السفرات الدبلوماسية التي أرسلها إلى هذين الزعيمين في إقامة تعايش وفي قبول الحماية الفرنسية . وبينما كان جاييني يتأدى بالسلام كان يساعد أعداء أحمد وساموري بتقديم الهدايا من السلاح . واعتبرت سياسته سياسة ثورية لأنه لم يعمل على إقامة العلاقات مع الحكام بل اهتم بإقامة الاتصال بالجماهير التي كان يرى أن مصالحها تتفق مع مصالحهم ، والتي هي على استعداد لتفهم هذه النظرة فيما لو أخذت فرنسا على عاقبها أن توضح هذا الأمر لهم .

وعندما غادر جاييني السودان في عام ١٨٨٨ سلم إلى من يخلفه مساحة من الأراضي وقد تدعم عليها نفوذ فرنسا . ورغم أنها لم تتضمن غنوجات جديدة كبيرة إلا أن الضباط الفرنسيين استطاعوا القيام برحلات كشفية ، ومن أهمها رحلة الكابتن بنجيه (Binger) عام ٨٨ — ١٨٨٩ حيث اكتشف المنطقة الواقعة بين أعالي النيجر ونهر الفولتا .

لكن أرشينار خليفته لم يتبع سياسته بل سار على سياسة دييورد وكان ضابطاً طموحاً ، وكان حسن الحظ إذ أن فرنسا في ذلك الوقت ، اتخذت سياسة ايجابية نشطة بخلاف تلك التي كانت سائدة في منتصف الخمسينات . استبعد أرشينار سياسة جاييني التي كانت تقضى بالانتظار حتى تنهار مملكة التكلور بعد موت أحمدو ، وحصل على إذن من باريس في عام ١٨٩٠ بمهاجمة سيجو (Segu) عاصمة التكلور ثم نيورو (Niuru) المدينة الثانية في ١٨٩١ . وفي عام ١٨٩٨ هرب أحمدو شرقاً مع بعض من أتباعه وتوفي وهو في طريقه إلى سوكونو Sokoto . اتجه أرشينار بعد ذلك — مخالفاً التعليمات الرسمية —

الى مهاجمة سامورى ، الذى كان فى وضع أفضل من أحمدو وكانت لديه قدرة أكبر على الصمود فى وجه الهجوم الفرنسى (١٠) .

وكانت السياسة الفرنسية فى غرب أفريقيا قد أخذت قدرا كبيرا من التدعيم ، فى عام ١٨٨١ عندما قام جامبetta Gambetta بإنشاء وزارة جديدة للتجارة والمستعمرات (١١) كما أن احتلال بريطانيا لمصر فى عام ١٨٨٢ كان له أثر عميق على الاتجاه العام للعلاقات البريطانية - الفرنسية كما أنه سهل اتخاذ سياسات معادية لبريطانيا بصورة أكثر سفورا ، ولكن هذه السياسات كانت تهدف الى تدعيم مركز فرنسا فى غرب أفريقيا وليس طرد بريطانيا من مصر (١٢) .

تميز غزو فرنسا لغرب أفريقيا بالطابع العسكرى أكثر مما تميزت به بريطانيا ، وفى أعالى النيجر بصفة خاصة تميز العسكريون الفرنسيون بحرية العمل كما لاحظنا ذلك فى العرض السابق . واهتم الفرنسيون بمساحة الأرض أكثر من اهتمامهم بنوعيتها . وكما قال (Brunschwig) فان غزو غرب أفريقيا أتاح فرصا كبيرة للترقية والنياشين للعسكريين ، لكن هؤلاء العسكريين بحكم تكوينهم غير صالحين لمفاوضات السلام (١٣) . كانت فرنسا مقيدة باستراتيجية شاملة تقضى بربط نقاطها الساحلية بالأراضى التى حصلت عليها فى السودان وأن تحتل من النيجر القدر الذى يوصلها الى ميناء يتصل بالمنطقة الصالحة للملاحة من نهر النيجر حتى المحيط .

اما بريطانيا فقد كانت زاهدة فى الحصول على مستعمرات وذلك

(10) HALLET : op. cit., pp. 268 - 270.

(11) NEWBURY : Fresh Policy, p. 268.

(12) NEWBURY : Ibid, pp. 268 - - 271.

(13) BRUNSCHWIC, Henri : Mythes et réalités de l'imperialisme colonial Français, 1871 - (Paris, 1960), pp. 163 - 170.

طوال السنوات العشر التالية لمؤتمر برلين (٨٤ - ١٨٨٥) ولم تتبع بريطانيا سياسة ايجابية فى أفريقيا الا فى عهد جوزيف تشمبرلين فى عام ١٨٩٥ عندما كان وزيراً للدولة لشئون المستعمرات ، واعتبر الغزو العسكرى بديلا عن الحصول على معاهدات . والى ما قبيل ذلك الوقت كانت طلبات التدخل المسلح من جانب الاداريين أو التجار البريطانيين تقابل بالرفض . ومع أن تشمبرلين كان على استعداد للموافقة على استخدام القوة الا أنه كان حريصا على أن تكون له اليد العليا على القادة العسكريين ، فى حين كان العسكريون الفرنسيون عادة يطلبون سياساتهم على حكوماتهم . وبذلك فان المناطق التى طالبت بها بريطانيا هى المناطق التى كان يعمل فيها تجارها بصورة نشطة أو تلك المناطق التى رأوا فيها ربحا فى المستقبل . وبينما كان العلم يسبق التجارة بالنسبة لفرنسا ، فان التجارة كانت تسبق العلم بالنسبة لبريطانيا أو أن العلم كان يوجه الى حيث ينبغى له ، ونتج عن ذلك أن استولت بريطانيا فى غرب أفريقيا على مساحة أقل ولكنها أكثر غنى (١٤) .

وفىما يتعلق بما أشيع فى الدوائر الفرنسية عن التهديد البريطانى لأعلى النيجر فان المسئولين البريطانيين لم يبدوا اهتماما كبيرا به بل أنهم أبدوا دهشة لما قرأوه فى الجريدة الرسمية الفرنسية (Journal Officiel) عن السياسات الفرنسية ونظروا اليه بحسد من أن الحكومة تستطيع أن تحصل على موافقة برلمانية على هذه المشروعات الطائلة التكاليف . ولكن عندما تحدثت احدى الصحف الفرنسية عن السعى الى أسواق بلاد الهوسا عن طريق السنغال ، رد صمويل رو (Samuel Rowe) حاكم سيراليون بأنهم سيصلون الى بلاد الهوسا عن طريق لاجوس قبل أن يصل اليها الفرنسيون بأمد بعيد ، الا أنه رأى الخطر الحقيقى فى احتمال أن يعوق استيلاء فرنسا على بعض المناطق

القرية ، قوافل تجارة سيراليون من الوصول الى النيجر أو أن يحد من اتساعها فى المستقبل •

وفى منتصف الثمانينات شهدت منطقة أعالي النيجر سكونا من جانب كل من بريطانيا وفرنسا على السواء ، وفى مارس ١٨٨٥ ترك جول فيرى (Jules Ferry) رئاسة الوزارة الفرنسية عقب هزيمة فرنسا فى الهند الصينية • ولم يكن هناك أحد فى فرنسا يستطيع أن يطلب تخصيص نفقات حملات عسكرية لهذه المنطقة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تواجه مقاومة شديدة من الزعماء الوطنيين الافريقيين ، حيث أن استيلائهم على باماكو فى ١٨٨٣ قد جعلهم وجها لوجه أمام مناضل عنيد فى أعالي النيجر هو سامورى ، زيادة على ذلك فان لجوء القوات الفرنسية الى استخدام السخرة والعمل الاجبارى دون أجر قد أثار عليهم مشاكل داخلية فى فرنسا (١٥) •

لقد سبب سامورى للفرنسيين الكثير من القلق بسبب اتجاهه الى الحاكم البريطانى فى سيراليون عارضا عليه قبول الحماية البريطانية فى مقابل ضمان امداده بالأسلحة النارية • ولما خشى الفرنسيون أن تقع منابع نهر النيجر تحت سيطرة البريطانيين بعثوا بالرسائل الى سامورى فى عامى ٨٦ ، ١٨٨٧ وزعموا فى كل مرة أنهم حصلوا على توقيعهم على معاهدات بقبول حمايتهم • وبصرف النظر عما دار فى هذه المحادثات فان سامورى بالتأكيد لم يكن يبتوى التفريط فى استقلاله وسيادته ، لكن الحكومة البريطانية أقرت بهذه الاتفاقيات بهذا المفهوم ولم تتدخل عندما قررت فرنسا فى النهاية أن تكسر شوكة هذا الزعيم العنيد •

(15) HARGREAVES : op. cit., p. 339.

كان اهتمام بريطانيا فى الحقيقة منصبا على الجزء الأدنى من نهر النيجر ابتداء من بوسا (Boussa) حتى المصب وهى المنطقة الصالحة للملاحة ، والعمل على ابعاد الفرنسيين عن هذا الجزء الهام وبالتالي ابعادهم عن الوصول الى قلب بلاد الهوسا .

ولم يقلل من اهتمام الدولتين بالملاحة فى نهر النيجر النصوص التى أقرتها الدول الأوروبية فى مؤتمر برلين ، والتى تقضى فى المادة ٢٦ من الفصل السابع من اتفاق مؤتمر برلين الموقع فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ بحرية الملاحة فى نهر النيجر بكل فروعه ومخارجه للسفن التجارية لجميع الدول على قدم المساواة فيما يتعلق بنقل البضائع والأشخاص^(١٦) . ولا شك أن مرد اهتمام هذه الدول أن النصوص القانونية ليست أكثر من حبر على ورق فى حالة قيام المنازعات الدولية وأن أوضاع القوة الحقيقية والواقعية هى التى تفرض نفسها فى النهاية فى تسوية المنازعات ، كما أن بريطانيا وفرنسا كان كل منهما حريصا على أن يكون الجزء الأدنى من نهر النيجر طريقا للوصول الى الداخل والسيطرة على هذه المناطق الهامة التى تتميز بكثافة سكانية تفوق فى تعدادها مجموع عدد السكان فى غرب أفريقيا كلها وبالتالي أهميتها كسوق تجارية لبضائع هذه الدول .

وبالنسبة للنزاع فى أعالي النيجر وأواسطه فلقد بدا لبعض الوقت فى عام ١٨٩٢ احتمال حل النزاع بين انجلترا وفرنسا على الحدود بين مناطق النفوذ غرب وجنوب أعالي النيجر وأواسطه . واقترحت اللجنة المشكلة لهذا الغرض حلا وسطا بتقسيم المنطقة المتنازع عليها وفقا لخط يبدأ من ساي (Say) على نهر النيجر متجها جنوبا بغرب الى بندوكو (Bonduku) على نهر الفولتا ، فما يقع شمال هذا الخط وغربه يكون لفرنسا وما يقع جنوبا بشرق يكون من نصيب بريطانيا . لكن فرنسا

(16) HERTSLET : The map of Africa by treaty, p. 481.

رفضت الاتفاق وكان لتجدد الخلافات بين الدولتين حول النيل أثره فى
اعاقة الاتفاق على النيجر .

وكعادة البريطانيين فى تحقيق أهدافهم من خلال طرف ثالث ،
طلبت بريطانيا من ألمانيا فى سنة ١٨٩٣ أن توقف أية محاولات جديدة
للفرنسيين بمد مطالبهم شرق بحيرة تشاد ، وقد وافقت بريطانيا فى
المعاهدة التى وقعتها مع ألمانيا فى تلك السنة على أن يمتد ظهير الكميرون
الألمانى شمالا الى بحيرة تشاد ، كما يتضمن أن تشمل منطقة النفوذ
الألمانية كل حوض نهر شازى الممتد من بحيرة تشاد شرقا حتى الحدود
الغربية للسودان المصرى . وكان هدف البريطانيين من اطلاق يد الألمان
فى هذه المناطق الشاسعة من وسط غرب أفريقيا منع الفرنسيين من
الوصول الى أعالى النيل من أعالى النيجر والكنغو . وقد احتج
الفرنسيون بأن هذا الاتفاق يقضى بقيام مناطق نفوذ بريطانية وألمانية
شاسعة تحول بين القواعد الفرنسية فى الجزائر والسنغال وأعالى
النيجر وقواعدها فى الكنگو . كما أن هذا الاتفاق سيقضى على آمال
الفرنسيين فى ربط مخمياتهم فى غرب أفريقيا بمحمياتهم على ساحل
البحر الأحمر .

أصبحت المناوشات على الحدود الشمالية من منطقة النفوذ
البريطانية على النيجر جزءا من النزاع الأكبر حول أعالى النيل . ومن
ثم فان المطالب التجارية لشركة النيجر (Niger Company) البريطانية
خدمت بصورة غير مباشرة المصالح العليا لبريطانيا والمتعلقة بأمن مصر .
لكن فرنسا قلبت سريعا خطط بريطانيا باتفاقها (فرنسا) مع ألمانيا فى
مارس ١٨٩٤ عندما قبل الألمان تسليم منطقة نفوذهم فى الكميرون بالتالى
الى فرنسا ، وبذلك فتحوا الطريق مرة أخرى الى أعالى النيل . ولقد
كان من العلامات على ضعفه اهتمام بريطانيا نسبيا بغرب أفريقيا أن
وزارة الخارجية البريطانية كان عليها فى سنة ١٨٩٣ أن تعتمد على

اثارة ألمانيا للتحرك ، تماما كما اعتمدت على تحريك البرتغال فى مسألة الكونغو قبل ذلك بعشرة أعوام (١٧) .

أخذت الصراعات بين انجلترا وفرنسا فى غرب أفريقيا ترداد حدة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ولم تفلح الاتفاقيتان المعقودتان بين الدولتين فى ١٠ أغسطس ١٨٨٩ ، ٢٦ يونية ١٨٩٢ فى استعمار الوفاق بين الدولتين ، ويقول الفرنسيون أنه بالرغم من الاتفاق بينهما على تخطيط الحدود على الورق الا أن المندوبين البريطانيين كانوا يثيرون فى مجال التنفيذ الواقعى الكثير من العقبات . وأصبحت الخلافات بين قوات الدولتين فى أفريقيا متوقعة والمصادمات محتملة ، وقد وقعت احدى هذه المصادمات بالفعل بين قوات الدولتين قرب وأيما (Waima) فى ٢٣ ديسمبر ١٨٩٣ عندما أطلقت قوة فرنسية بقيادة الملازم مارتيز (Maritz) النار على قوة انجليزية كانت تظن أنها تابعة لسامورى ، وعندما تدارك الطرفان الخطأ كان اثنى عشر فردا من كلا الجانبين قد لقى حتفه وكان من بينهم الملازم الفرنسى مارتيز والكابتن الانجليزى لندى (Lendy) . وبعد ذلك بثلاثة شهور تكرر وقوع حادث مماثل فى المنطقة نفسها فى سامو (Samoh) . ولم تؤثر مثل هذه الحوادث على العلاقات بين البلدين ، واعتبرت من الأمور التى لا يمكن تفادى وقوعها فى مثل هذه المناطق المجهولة (١٨) .

وحتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حققت الحملات العسكرية والمفاوضات والبعثات الفرنسية الى السودان الغربى - بصرف النظر عن الصراع بينها وبين انجلترا - عدة نتائج من وجهة نظر فرنسا ، تتمثل فى تمكنتها من القضاء على دولة التكلور ودولة سامورى ، والاتصال المباشر بالشعوب التى كانت خاضعة لهاتين الدولتين ، وزيادة

(17) RCINSON : Africa and the Victorians, pp. 391 - 392.

(18) DARCY : France et Angleterre, p. 276.

مساحة السودان الفرنسي بـ ٦٥٪ من مساحه فى خلال السنوات الثلاث من ٩٠ - ١٨٩٣ ، وفرض الحماية الفرنسية على دولة تيبـ (Tieba) وفوتا جالون وكونج والموسى ، وربط السنغال والانهار الجنوبية والسودان بساحل غينيا ، وتقليص حجم مستعمرتى جامبيا وسيراليون الانجليزيتين وغينيا البرتغالية وتوجو الالمانية وجمهورية ليبيريا بحيث أصبحت هذه جميعا دولا ساحلية دون أن تكون لها مطالب متعلقة بالظهر القارى (Hinterland) (١٩) .

والواقع أن كلا من فرنسا وبريطانيا كان يجمعها اعتقاد مشترك فى شرعية الغزو العسكرى تحت دعاوى مختلفة ، لكن الواقع يؤكد أنهم فرضوا نظم حكم أشد قسوة من نظم الحكم الوطنية وأدى الغزو الى ازهاق الكثير من الأرواح . وقد قوبل الغزو بمقاومة من القوى الوطنية والدويلات القائمة فى ذلك الوقت خاصة تلك التى يحكمها زعماء مسلمون والذين اعتبروا فرصة حكم البعض فى نظرهم معناه الخضوع لغير المؤمن وهو أمر غير مقبول ، وهذا يفسر شراسة المقاومة التى واجهت فرنسا فى تلك المنطقة (٢٠) . وهى مقاومة لها وزنها واعتبارها فى مواجهة الأسلحة الحديثة وعدم التكافؤ بين الطرفين وان كان القواد الفرنسيون يميلون دائما الى المبالغة فى حجم القوات الافريقية التى يواجهونها حتى يكون لهم التقدير لدى السلطات فى باريس وليكون ذلك طريقا لهم الى الترقى (٢١) .

كان فى مقدور الدويلات الافريقية أن تكون أكثر فاعلية فى مواجهة الغزو الفرنسى ، ولكن عوامل الخوف والشك والمنافسة كانت تسيطر على

(19) ARCHINARD : Le Sénégal et le Soudan Français, p. 233.

(20) CROWDER : op. cit., pp. 71 - 72.

(21) UKPABI : West Africa and Europe in military confrontation, p. 106.

العلاقات بين هذه الدويلات بعضها والبعض الآخر وتداركت في وقت متأخر الخطر المشترك الذي يهددها وسعت الى تجميع قواها لمواجهة الغزو الأجنبي .

ومن الأمثلة على ذلك العلاقات بين ساموري ثوري وتيبيا ، وكنيت علاقات سيئة بسبب اختلاف أطماع كل منهما وقد أدى هذا الاختلاف الى مواجهات عسكرية ، اذ قام ساموري بحملة ضد سيكايو عاصمة دولة تيبيا استمرت عدة شهور وخسر فيها الطرفان خسائر ضخمة في الأرواح وفشل الحصار وعاد ساموري أدراجه .

وعمل حكام التكلور على ازالة الخلافات بين ساموري وتيبيا وأدخلوهما في تحالف معهم وكان هذا التحالف قائما على أساس الاعتراف المتبادل باستقلال كل منهم وسيادته على أرضه ، واقتصر التحالف على التضامن في وجه الغزو الفرنسي لبلادهم . وتعد سياسة حسن الجوار التي قامت بينهم بعد التحالف دليلا على امكان التعاون بين هذه الممالك الاسلامية برغم اختلاف انتماءات هذه الدويلات من حيث الطوائف الدينية .

وقد ساهم المغاربة بتقديم خدماتهم الى هذه الدويلات ، وكانت خدمات كبيرة تتناسب مع مهنة التجارة التي يحترفونها في مختلف أنحاء غرب أفريقيا ، وكان الفرنسيون يخشون نفوذهم كمندوبين سياسيين لكل من التكلور وساموري . وقد ذكر أرشيناير أحد القواد الفرنسيين أسمى اثنين منهم ممن كانت لهم مكانة عند كل من أجمدو زعيم التكلور وساموري وكان كلاهما من كبار التجار في السودان الغربي وقد أتاح لها ذلك معرفة واسعة بأحوال المنطقة . وقد تظاهروا بالود للفرنسيين وأبدوا عدم اهتمام أو اهتمام بشئون السياسة مما جعل بعض الفرنسيين يعتبرونهم أصدقاء لهم ولم يكتشفوا حقيقتهم الا مؤخرا .

فوجيء الفرنسيون كذلك بتحول زعيم كان من أصدقائهم هو تيبا حاكم كندوجو (Kénédaougou) وكان معروفا بعدائولكل من ساموري وأحمدو . كما أن حركات المعارضة لامبراطورية التكلور التي كانت تغذيها فرنسا اكتشفت أنهم وامبراطورية التكلور نفسها كلنوا ضحية لغدر فرنسا وهذا ما أدى الى خلق نوع من المصالح المشتركة بين التكلور والعناصر المناوئة لهم ، وكان دافعهم للتعاون دافعا مشتركا وهو المحافظة على كيانهم الخاص وشخصيتهم الثقافية وهو ما كان يحركهم فى الماضى ضد التكلور .

من جهة أخرى فان تعاون هذه العناصر مع التكلور لم يكن يعنى قبولهم للاسلام أو الاعتراف بشرعية سلطة التكلور عليهم ، والتغيير بالنسبة لهم فى الإستراتيجية لكن الهدف لم يتغير (٢٢) .

وبالنسبة للتكلور فان أهدافهم مختلفة عن أهداف هذه العناصر ، وبالتالى فان التعاون بينهما لم يتوقع له أن يستمر الا كما يستمر التهديد الفرنسى لكل منهما .

انضم تيبا للتحالف عندما اكتشف أن الفرنسيين يستخدمونه كأداة لتدعيم نفوذهم الاستعماري فى السودان الغربى ، ولانقاذ دولته سارع الى الاستجابة لجهود التكلور للتوفيق بينه وبين ساموري وكان ساموري أيضا راغبا فى الوصول الى تسوية حتى يتفرغ لمواجهة التهديد الفرنسى لدولته . وهكذا تدعمت المصالحة بينهما بفضل التهديد الفرنسى والديبلوماسية الذكية التي استخدمها أحمدو حاكم التكلور . وقام التحالف أيضا بين ساموري ودولة فوتاجالون ضد فرنسا كرد فعل للتوسع الاستعماري الفرنسى . فممنذ عام ١٨٧٩ تعرض ساموري لضغط شديد من الفرنسيين كما أن اقامة المواقع الفرنسية فى الأنهار

(22) OLORUNTIMEHIN : Anti - French coalition of African states and groups in the bestern Sudan, p: ٥.

الجنوبية - شمال دولة غينيا حاليا - ونشاطهم على حدود فوتاجالون نفسها جعلها تحس بعدم الأمان . وكان سامورى قد وسع حدود دولته فى ذلك الوقت لتصل الى حدود فوتاجالون وقد تبين له هو وامام فوتاجالون أن لهما قضية مشتركة ضد الفرنسيين ومن ثم فان الزعيمين أقاما منذ ٧٩ - ١٨٩٣ علاقات ودية بينهما وتعاونوا ضد الفرنسيين .

فى الفترة السابقة لعام ١٨٨٩ كانت العلاقات بين التكلور وسامورى وتيبا قائمة على أساس حسن الجوار ، وأدى التفاهم القائم بينهم الى أن يكونوا حلفاء أقوياء بالرغم من مكائد المسئولين الفرنسيين وقد نجح الفرنسيون فى الماضى فى تقديم أنفسهم على أنهم حماة تيبا ضد سامورى بل وحاولوا تدبير العداوات بين تيبا والتكلور حتى يتمكنوا من استغلال الموقف لمصلحتهم . ولم تفلح الجهود التى بذلها الفرنسيون فى ٨٨ ، ١٨٨٩ للوقعية بين التكلور وتيبا . وهذه النقطة جديدة بالملاحظة اذ أن التكلور استطاعوا أن يفوتوا على الفرنسيين تدبيرهم ومكائدهم واستطاعوا أن يحافظوا على النوايا الطيبة بينهم وبين تيبا وهذا ما جعلهم فى موقف يسمح لهم باستخدام مساعيهم الحميدة فى التوفيق بين تيبا وسامورى وأن يدخلوا كليهما فى التحالف ضد فرنسا (٢٣) .

واصل الفرنسيون محاولاتهم لتدمير دولة التكلور بوقف امدادات السلاح عنها وتدمير نظامها الدفاعى ، وفى عام ١٨٨٩ دمروا كونديان وكان الهدف من وراء ذلك افساد العلاقات بين سامورى والتكلور . أملى هذا على التكلور أن يدركوا أكثر من أى وقت مضى الحاجة الملحة لضرورة التعاون مع التحالفات القائمة ضد الفرنسيين . ولتحقيق هذا الهدف أرسل أحمدو الرسل الى سامورى وامام فوتاجالون وعدد آخر من زعماء المنطقة (٢٤) .

(23) OLORUNTMHIN : op. cit., p. 13.

(24) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 14.

وأدى تجدد الهجوم الفرنسى ضد سامورى والدول الواقعة فى
سنجامبيا الى التعجيل بمحاولة اقامة جماعة متألّفة من بين العناصر
العديدة المعادية لفرنسا • وجاء الهجوم الفرنسى عقب فشل المناورات
الدبلوماسية التى قامت بها فرنسا فى فبراير ومارس ١٨٨٩ بهدف
تحييده حتى تطلق يدهم فى تدمير دولة التكلور •

وتعاونت كل الجماعات فى تنفيذ مخطط محاربة الفرنسيين • ومع
بداية عام ١٨٩٠ كانت الجماعة المعادية لفرنسا تضم التكلور وفوتاجالون
وفوتاتورو وريب والبولوف وسامورى • جمعت كل هذه
القوى حشدا كبيرا من القوات يقدر بعشرة آلاف رجل ، لكن التأييد الذى
كانت فرنسا تجده بين حلفائها الافريقيين جعل المهمة صعبة وهذا
ما حدا بأحمدو أن يحاول عزل هؤلاء الافريقيين عن فرنسا • ولهذا
أرسل أحمدو رسلا الى تيبيا حاكم كندوجو للتوفيق بينه وبين سامورى ،
وفى نفس الوقت بعث أحمدو برسل آخرين الى كانكان لمصالحة العناصر
المنافئة لسامورى معه •

ولكن رغم نجاح التآلف فى كسب المزيد من الأنصار نقضيته ظل
الموقف دقيقا وخطيرا اذ أن تيبيا واللمبرة والعناصر المعادية للتكلور
استمروا فى تعاونهم مع الفرنسيين الذين يعتبرونهم أصحاب الفضل
فى الحفاظ على استقلالهم ضد سامورى والتكلور • واستمر هؤلاء فى
التعاون مع الفرنسيين حتى عام ١٨٩١ ، وفى نفس الوقت وسع الفرنسيون
حملاتهم ضد التكلور فى كارتا وضد سامورى وتعاملوا بوحشية مع
قوات الاتحاد ومؤيديه وأعدموا كل من ثبت لديهم قيامه بأعمال لصالح
هذا الاتحاد • وكانوا يشكون فى كل مسلم ويعتبرونه مملوءا بالتعصب
وأنهم يسلم من هذا الاتهام مترجمهم ذاته ، وكان هذا الموقف المتطرف
يهدف الى التخويف واجبار الجميع على الخضوع والاستسلام •

كان الفرنسيون يخشون كذلك — كما سبقت الإشارة — المغاربة

الذين انضم بعضهم « لأجهزة المخابرات » التابعة للزعماء الافريقيين فى حين اشترك البعض الآخر فى الحملات العسكرية ضد الفرنسيين . ومنذ تبين للفرنسيين حقيقة موقف المغاربة فى قيامهم بهذا الدور المزدوج أصبح القواد الفرنسيون يعاملونهم بوحشية وقسوة على أنهم جواسيس . وقد أبدى أرشينار أسفه لعدم القيام بحملات عسكرية انتقامية ضد المغاربة لأنه يصعب تتبعهم فى الصحراء ولكن يمكن ضربهم عن طريق وقف تجارة الرقيق فى السودان الغربى والتي تعتبر مادة أساسية فى معاملاتهم التجارية . وهو سلاح مشهور يستخدمونه فقط ضد أعدائهم لأنه يضر بالطرفين على سواء . لذلك اعتبر الفرنسيون أن أفضل سلاح ضد المغاربة هو تجريد الحملات العسكرية ضد قوى الاتحاد التى يحاربون معها (٢٥) .

وبالرغم من جهود قوى التحالف الا أن الفرنسيين وحلفاءهم كانوا يحرزون انتصارات عليهم . وعندما استولى الفرنسيون على كارتا وسيجو توقع البمبرة أن يعيدوا اليهم هذه الأرض بعد تحريرها ، وكان البمبرة يتعاونون مع الفرنسيين على هذا الأمل لكن الفرنسيين صدوهم بطريقة جافة مما جعلهم يتبينون أن الفرنسيين قد استخدموهم لمصلحتهم الخاصة — وبذا أدركوا أن الفرنسيين أسوأ من أعدائهم من الافريقيين لذلك انضموا الى قوى الاتحاد ضد فرنسا وظلوا يحاربونها حتى سقوط دولة النكولور .

وقد مر بالتجربة نفسها تيبا حاكم كندوجو الذى كان قد تعاون مع الفرنسيين من أجل تدعيم مركزه فى مواجهة سامورى ، وفى تعاونه هذا كان يدعم عن غير قصد المشروعات الاستعمارية الفرنسية فى السودان الغربى . لذلك استجاب تيبا للمحاولات الدبلوماسية للنكولور التى بدأت فى ١٨٩٠ . وانتهت بالمصالحة مع سامورى الذى أوقف بالتالى

حملاته ضد كندوجو • وقد جمع الزعيمان قواهما فى محاربة الفرنسيين واستمر تيبيا على ذلك حتى توفى عام ١٨٩٣ — وبانضمامه للتحالف كانت كل القوى الافريقية داخلة فى الاتحاد •

واجه الاتحاد محنة قاسية بسقوط امبراطورية التكلور ووشاة تيبيا فى ١٨٩٣ ، واستمر سامورى فى حروبه ضد الفرنسيين حتى عام ١٨٩٨ وكان يساعده بابمبا (Babemba) شقيق تيبيا واستمر التعاون بينهما الى النهاية التى كانت فى عام ١٨٩٨ وبسقوط سامورى التهمت فرنسا كل العناصر الباقية سواء داخل الاتحاد أو خارجه (٢٦) •

كان بين الصعوبات التى واجهها الاتحاد عدم الانسجام السياسى والاقتصادى الذى يفرق بين شعوب السودان الغربى وعدم تناسق الأهداف الخاصة بكل جماعة • كان الاتحاد قائما على أساس خليط من الرغبة فى الاستقلال ومعاداة الاستعمار والمحافظة على المصالح التجارية والتضامن القبلى والدينى • وليس من السهل ايجاد الوفاق بين هذه الفئات المختلفة فى الاتحاد • وبالنسبة لمعظم المنظمين للاتحاد كان الاعتبار الأول ، الحاجة للمحافظة على استقلالهم ليس ضد العدو المشترك فحسب بل ضد كل منهم الآخر • وحتى هذا الهدف لم يمكن تحقيقه بسبب تساقط الأقاليم المختلفة فى مواجهة الغزو الفرنسى • ويرجع الفضل فى نجاح الفرنسيين الى استغلالهم الماهر للخلافات بين عناصر لاتحاد ، ولكن يأتى فى مقدمة الأسباب بطبيعة الحال تفوق السلاح الفرنسى •

المراجع

1. ARCHINARD, Colonel L. : Le sénégal et le Soudan Français (Alfred Rambaud (ed.) : La France Coloniale), Armand Colin (Paris, 1893).
2. Crowder, Michael : West Africa under colonial rule, Hutchinson (Lonon, 1968).
3. Darcy, Jean : France et Angleterre, cent années de Rivalité colonial, Perrin (Paris, 1904).
4. HALLET, Robin : Africa since 1873, Vol. II, Heinemann Educational Books, (Ibadan, 1975).
5. HARGREAVES, John D. : Prelude to the partition of West Africa, Macmillan (London, 1966).
6. HERTSIET, E. : The map of Africa by treaty, Vol. 11, Frank Cass. (London, 1969).
7. NEWBURY, C. W. : The development of French Policy on the Lower and Upper Niger, 1880 - 1898, The Journal of Modern History (Chicago), Vol. XXXI, March - December 1959.
8. NEWBURY, C.W. & KANYA - FORSTNER, A.S. : French Policy and the origins of the scramble for West Africa, Journal of African History (London), X, 2 (1969).
9. OLORUNTIMEHIN, Olatunji : Anti - French coalition of African states and groups in the Western Sudan, Journal of West African Studies, University of Ife (Nigeria) New Series, No. 3, April 1970.
10. ROBINSON, R. & Others : Africa and the Victorians, the official mind of imperialism, Papermac (London, 1970).
11. UKPABI, S.C. : West Africa and Europe in military confrontation, Journal of the Historical Society of Nigeria (Ibadan). Vol. VI, No. 1, December 1971.

